19me : annéeNo 916

Le Caire -21— —

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن هذا العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العدد ٩١٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٣ ربيع الآخر سنة ١٣٧٠ — ٢٢ يناير سنة ١٩٥١ — السنة التاسعة عشرة »

الدين والسلوك الانسانى

للاستاذ عمر حليق

— ١ —

توطئة :

يواجه الدين فى العالم المعاصر موجتين من التحدى : إحداهما إلحادية لا ترى فى الدين إلا « تخلصا من الواقع » ولجوءا إلى التخديرات الروحية التى أبرز ما فيها أنها توجه السلوك الإنسانى توجيها سلبيا إزاء مشاكل الحياة، ومن ثم إزاء عناصر التقدم والسعادة البشرية .[١] هذه الموجة هى محور الهجوم الماركسى على الحياة الدينية

والموجة الأخرى لا تمت إلى الفلسفة الماركسية إلا بصلة غير مباشرة ولكنها تماثلها فى الابتعاد عن الحقيقة الدينية . أعنى بها موجة التحلل من القيم الدينية التى ابتدأت فى أوروبا الغربية فى القرن الماضى والتى تزعمها الآن الحضارة الأمريكية وتنقلها إلى سائر بقاع الأرض مواصلات فكرية أتقن الأمريكيون وسائلها إتقانا بارعا فى الأفلام السينمائية والصور الفوتغرافية والصحافة ومؤسسات الإعلان والدعاية والقصص الحديثة، وألف نوع ونوع من وسائل الاتصال الفكرى الذى يهيمن الآن على القسم الأعظم من صحافة العالم وإنتاجه الأدبى والفنى

ووجه الخطورة فى الموجة الثانية أنها فى حل من أن تتهم بالدعوة إلى التفسير المادى للتاريخ على النحو الذى يدعو إليه الشيوعيون . ولكنها فى الواقع تفعل ذلك ، وفوقه عنصر من أخطر العناصر فى السلوك الإنسانى وهو تركيز النشاط الفكرى والنفسانى فى حرية الغريزة والعاطفة والاهواء

ومن أوجه الخطورة كذلك فى هذه الموجة التى تتزعمها الحضارة الأمريكية المعاصرة إحاطتها بهالة من التقدير والإعجاب بدعوى أنها من الشواهد الأصلية على التقدم الحضرى وتوجيه السلوك الإنسانى نحو قسط وافر من السعادة والهناء

فحرية الغريزة وانطلاق الشهوات والأهواء التى تمخضت عنها حضارة فرنسا اللاتينية فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر والتى تحمل الآن لواء الدعوة لها الحضارة الأنجلوسكسونية، هذه الحرية أصبحت الآن جزءا جوهريا من مبادئ التحرر السياسى والفكرى الذى هو بحق أفضل ما فى الحضارة الغربية من تراث

[١] — راجع بوخارين الكاتب السوفيتى فى كتابه
Marxisme and Modern thought

فالتحرر (ليبيرالزم) فى ثقافة الغرب المعاصرة عامة والأنجلوسكسونية منها على وجه الخصوص عم على الإصلاح فى مجالات الاقتصاد والسياسة والصلات الاجتماعية والانطلاق الفكرى . وهذا يشمل الدين والحياة الروحية والنفسية، واتجاهات الثقافة الأنجلوسكسونية فى هذه الآونة تقف موقف التحدى لجوهر العناصر التى تضمن التكافل الاجتماعى . فالصراع الفكرى فى أوروبا وأمريكا الآن يكاد ينحصر فى توجيه السلوك الإنسانى لا على أساس العقل كما شرحه فلاسفة القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر ولكن على أساس الغريزة والانطلاق النفسانى (الفيزيولوجى والسيكولوجى) كما بشر به (زيجموند فرويد) وأتباعه من علماء التحليل النفسانى والمدارس الفكرية والأدبية والفنية المديدة التى تأثرت به وتفرعت عنه، وكما تدعو إليه «هواليوود» وكتاب القصة الحديثة وبعض أئمة الفن فى أوروبا وأمريكا

فإذا حق لحضارة الغرب أن تفتخر بأنها خلال القرون الأخيرة الماضية قد أسدت إلى تراث الفكر وانطلاقه من قيود الجمود والبلادة العقلية، فإن هذه المثل الآن تواجه حملة عاصفة تدفع بالسلوك الإنسانى نحو فلسفة بدائية فى جوهرها ومضمونها تمجد الغريزة النظرية وتناقض العقل وهدوءه وحكمته فتستهوى بذلك الجماهير التى تعيش على الصحف السيارة ووسائل التسلية الرخيصة واللهو والمتعة ممثلة فى الأفلام والقصص الحديثة . وهذه الألوان من الفنون والآداب التى تجد سبيلها إلى صميم دور العلم ومعاقله الراقية فى كثير من بقاع الأرض منها العالم العربى؛ وذلك لأن هذه الديكتاتورية الفكرية التى تفرضها الحضارات الأخرى لا تقتصر على أنصاف المتعلمين ، بل إن سلطانها يمتد فيؤثر تأثيراً فعالا فى الاتجاهات الفكرية والعاطفية لكثير من المثقفين الممتازين الذين يخلقون حضارات جديدة كما هو الحال فى حاضر الثقافة العربية

وأحب ألا يساء الفهم فى هذا الصدد . فالتعاون الفكرى أمر لامفر منه ، بل هو فى الواقع من الدعائم الجوهرية لبناء الحضارات الحديثة أو إحيائها والنهوض بها . ولكن المشكلة ليست فى مبدإ التعاون الفكرى ولكنها فى تفهم العناصر الجوهرية فى الحضارات التى تفرض نفسها خيرا أم شرا على حاضر الثقافة العربية . [٢]

ويخيل إلى أن الذين يوجهون الثقافة العربية الآن لم يفطنوا بعد فطنة جدية إلى إصلاح الأسلوب الذى اتخذه بناة الثقافة الجديدة فى الباكستان مثلا، والباكستان مثل فريد

فقادة الفكر فى الباكستان جماعة استوعبوا استيعابا غير قليل العناصر الجوهرية التى تكون حضارات أوروبا وأمريكا ، فاستبانوا فى نباهة وحكمة عناصر القوة والضعف فيها فنتج عن ذلك هذه النهضة الفكرية والأسس الإيديولوجية التى لم يتأثر بها بعد — مع الأسف الشديد — قادة الفكر فى الشرق العربى . فالإيديولوجية فى الباكستان ليست « رجعية » تعيش فى جو من القرون الوسطى كما يصمها بذلك بعض المغرضين من أعداء الشرق وبعض أبنائه . وإنما هى أسلوب فى الحياة والفكر استوحى التوجيه من تراث الإسلام ومبادئه ومن روح الشرق ونظمه الاجتماعية والتأصل فيه من الاتجاهات العاطفية والتكوين النفسى . فحين تبين لمحمد إقبال وغيره من جهابذة الفكر من القارة الهندية أن الإسلام كمذهب وكنظام للحياة الدنيوية برئ من هذا الجمود وهذه التفسيرات المغالطة وهذا السلوك الشائن الذى كاد يؤدى بالمسلمين إلى المذلة والانحطاط وبتقاقرهم إلى الانحلال والموت — حين تبين لمسلمى الهند والباكستان ذلك لم يقفوا عند حد الوعظ والإرشاد والنفخ فى أبواق لاتؤثر دعوتها فى صميم النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإحياء الفكرى والعملى ، وإنما استعاروا من الغرب مناهجه فى البحث والتوجيه واقتبسوا عنه أساليب العمل والإنتاج وصاغوا تعاليم الدين الإسلامى فى قالب لا يحيد عن جوهر العقيدة المحمدية، وإنما يتميز بأنه لا يختلف عن القوالب التى ولدت حضارات عصور النهضة من إيطاليا وفرنسا والبلاد الأنجلوسكسونية . وتبين لمسلمى الهند والباكستان كذلك بأن إنتاج الفكر الأوربى فى الحياة الدستورية وفى التنظيم الاقتصادى وفى التكافل الاجتماعى لا يمكن أن يكون مناقضا للنظم التى شرعها الإسلام ، وإنما هو فى الواقع متمم له . وجاء ميلاد الدولة الباكستانية فدمج الفكر بالعمل وحقق الأسس الهجرية

(٢) — راجع بحثنا لكاتب هذه السطور « دفاع عن الثقافة العربية» فى أعداد الرسالة ٨٩٧–٨٩٨–٨٩٩ (شهر سبتمبر ١٩٥٠)

للايديولوجية الإسلامية الحديثة على نحو آثار إعجاب العارفين به (٣)

وليس من أهداف كاتب هذه السطور أن يستعرض هنا أسس الإيديولوجية الإسلامية في الباكستان وإنما استشهد بها في معرض الحديث عن البلبلة التي تعترى الحضارة الإنسانية وأزمتها إزاء صراع العقل والروح من جهة، والغريزة البدائية من جهة أخرى ، هذا الصراع الذي أوجد تشويشا فكريا واجتماعيا في كثير من بقاع الأرض منها عالم الغرب

ولنعد إلى قضية الدين والسلوك الإنساني لنقرر حتما في المستهل أن هذا الصراع الفكرى يشغل الآن أذهان المثقفين في الغرب وفي أمريكا على وجه الخصوص

فقد نشأ العالم الجديد أول ما نشأ على مذهب التحرر من القيود الثقيلة التي فرضت على العقيدة والسلوك الديني في أوربا . فحملت سفينة (مايفلور) في القرن السادس عشر هؤلاء المضطهدين من القارة الأوربية إلى أرض كولومبوس لتدفع عنهم شر هذه القيود . فأسس الحضارة الأمريكية إذن أسس روحية للدين فيها شأن كبير لاتزال عناصره الأصلية تناضل موجات الإلحاد والانطلاق الغريزى الذى ولده نشوء النظم الاقتصادية الحديثة في أمريكا على النحو الذى شرحه في عمق وبلاغة الكاتب الألماني الكبير (ماكس ويجر)(٤). وكذلك تسرب الايدلوجية اليهودية وتركزها في صميم الحضارة الأمريكية وعيثها فيه فسادا (٥)

وحرى بالدين استخفوا واستهجنوا دفاع رجال الأزهر الشريف وعلمائه ورجال الدين المسيحيين في مصر عن الفضيلة والقيم الدينية في حلتهم الأخيرة (٦) بأن مثل هذا الدفاع هو من أهم ما يشغل العلماء وقادة الفكر في مناقل الثقافة الغربية التي يتطلع إليها المستخفون من المثقفين العرب ليستمدوا منها الوحى والإلهام والذخيرة لمناوأة هذا الإحياء الروحى الذى نشط له رجال الدين في مصر والشرق العربي

قلت إن أهل الفكر في أوروبا وأمريكا يشغلون الآن بهذا النزاع الحاد بين العقل والروح من جهة ؛ والانطلاق الغريزى البدائى من جهة أخرى وعلاقة السلوك الديني بهما

فبعض أتباع فرويد في إنتاجهم الفني العلمي يرون في السلوك الديني شاهداً ودليلا على الجهل والخوف والتفكك النفساني، وعلما على الجمود الفكرى والشخصية الضعيفة المنطوية التي لا تستطيع ولا تود مواجهة الواقع

ثم هناك ويليام جيمس البروتستانتي وغيره من فلاسفة الكنيسة الكاثوليكية الذين يقولون بأن السلوك الديني القويم ليس رمزا لهذه العقد النفسية؛ وذلك لأن في الفرد غريزة دينية متأصلة تشوب سلوكه دون أن يكون عرضة لكل هذه العقد أو لبعضها. وأن النفس المطمئنة والشخصية الكاملة الناجحة (بمعناها السيكولوجى) لم يتوفر لها هذه الطمأنينة وهذا الكمال إلا لأنها لمست مبلغ القوة في غريزتها الدينية فهذبتها بالتروى والتبصر، وأمنتها سليمة مستقرة آمنة لا تزعزعها هذه المشاكل الدنيوية النفسية التي لا يخلو منها مجتمع ما بدائيا كان أم حضريا . وتقول مدرسة ويليام جيمس (٧) — ولها اتباع من أئمة علماء النفس المعاصرين — (٨) إن الخوف والبلبلة النفسانية ومشكلة السلوك السيكوباتي ليست إلا وليدة إنكار الفرد على غريزته الدينية حقها ووظيفتها وتجاهله لأهميتها والدور الذى تلعبه في السلوك الإنساني ونفوره من إعنائها ورعايتها خالصة مطهرة

ولنقف هنيهة هنا ولنحاول في أعداد الرسالة القادمة إن شاء الله أن ندرس مسألة الدين والسلوك الإنساني على أضواء هذا النزاع لعلنا بذلك نساهم في تفهم هذه المشكلة الاجتماعية التي أخذت حدتها تتخذ طورا مخيفا في حاضر الأمة العربية

٣ — راجع التقرير السنوى للجنة الأمم المتحدة الاقتصادية لآسيا والشرق الأقصى (القسم الخاص بالباكستان

The united Nations Economic Survey for Asia & the far East 164.8 1949

Max Weber, The protestant Ethics and the Rise of Capitalism

De Toeqville, American Democracy.

(٥) راجع

The Jews in American Civilization A Symosium

٦ — راجع عدد جريدة المصرى في ١٢—٦—١٩٥٠

William James. Varieties of religious Experience,

O,W.Allport, The Individual and his religion,

« للبحث صلة »

نيويورك — عمر عليبي